الفصل الثالث

من أجواء الدعاء

الجو الآدمى

ونريد بالجو الآدمى : جو سيدنا آدم . . ونعنى بذلك : «جو التوبة» . .

لقد قال الله سبحانه وتعالى لآدم :

﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾ . .

وأباح الله لهما أن يستمتعا فيها بما شاءا ، من روح وريحان ، ومن فاكهة وأزهار . . وضمن الله له ألاَّ يجوع فيها ولا يعرى : أى لا يتألم باطنه بالجوع . . ولا ظاهره بالعرى . . وضمن له أن لا يظمأ فيها ولا يضحى : أى لا يتألم من حر الظمأ فى الباطن ، ولا من حر الشمس على ظاهره . .

ولكن الله سبحانه وتعالى حدد لهما شجرة معينة ، وأمرهما ألاَّ يقرباها . .

وما من شك فى أن عالم الإطلاق ، إنما هو عالم الألوهية . . أما عالم الإنسان فإنه عالم الحدود والقيود . .

بيد أن حدود الإنسان الدينية ، وتكاليفه التى أوجبها الله عليه ، إنما هى حدود من أجل رقيه وكماله . . وكلما التزم الإنسان ما أحبه الله منه ، كلما كان سائراً نحو الكمال والصفاء والطهر . .

وأنه لمن المعروف أن آدم وهو سائر على ما أحب الله من الامتناع عن الأكل من الشجرة ، كان ينعم هو وزوجته ، بطمأنينة النفس ، وراحة البال ، وهدوء الضمير ، كما ينعم بذلك أصحاب الضمائر النقية ، والسرائر الصافية . .

لقد كان يقضى حياته ناعماً بسعادة البراءة ، وسكينة الأطهار مع رفيقة حياته . . وأصحاب هذه الحياة – حياة البراءة – لا يرون عورة ، ولا يحسون بالخجل يغمرهم من أجل سيئة . .

أترى الطفل يحس بذلك ؟

إنهم وهم فى براءة الأطفال ، لا يشعرون بخزى ، ولا ينوء ضميرهم بتأنيب . . وكان آدم وحواء على ذلك ، حتى وسوس إليهما إبليس . . لقد وسوس إليهما حتى يخرجهما عن براءة الطهر ، ونقاء العصمة . فيريا ما لم يكن قد أتيح لهما رؤيته من الشر والقبح ، والعورات والسوءات . . وحتى يشعرا بما لم يتأتّ لهما الشعور به من قبل ، من تأنيب ومن شقاء بالمعصية . .

وإن صاحب السيرة السيئة معنى أبداً بأن يجر الآخرين إلى مستواه . . وأن ينزل بهم إلى حضيضه ، وأن يهوى بهم إلى مزالقه . .

لقد وسوس إليهما الشيطان آتياً من جانب الضعف فى الإنسان ، وهو حب الخلود ، وحب الملك . وقال لهما متسائلاً مستفسراً متجهاً لآدم :

هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ . . وأتى لهما فى صورة

الناصح ، وأقسم لهما على إخلاصه وصدقه ونصحه ، فصدّقاه . .

صدقاه أولاً لأنهما فى براءتهما اعتقدا إخلاصه ونصحه ، وصدقاه لأن ميولهما كانت إلى الخلود والملك ، كميول الأفراد من بنى جنسهم . .

وأكلا من الشجرة المنهى عنها . وزالت عنهما مباشرة براءة العصمة ، وسكينة الطهر . . وأحسا مباشرة بشقاء المعصية ، وعذاب الإثم . .

ويقول الله تعالى معبراً عن ذلك :

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ (١) .

وكان هذا أول نجاح لإبليس فى عالم الإنسان . . بيد أن نجاحه انقلب إخفاقاً . . وإذا كان قد فرح بنجاحه ، فإن فرحه لم يطل .

لقد حل بآدم وحواء الشقاء بسبب أكلهما من الشجرة وأخذ آدم يجرى فى الجنة من مكان إلى مكان بائساً حزيناً . . وهو أينما حل يسمع النداء الإلهى يتردد فى جنبات الجنة ، ويخترق أذنيه رهيباً مدوياً :

﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ (٢) .

ويجرى آدم فى الجنة ، وتتعلق بشعره الأشجار أو يتعلق شعره بها . . ولكنه يسمع النداء الإلهى من جديد :

---

(١) الأعراف آية : ٢٢ .

(٢) الأعراف آية : ٢٢ .

« أفراراً منى يا آدم ؟ » .

فيقول فى خجل وحزن :

« بل حياءً منك يا رب » .

لقد شقى آدم بالمعصية . وكذلك يشقى كل عاص بسبب ما اقترف من الإثم . . .

روى الترمذى أن النبى ﷺ قال :

« لا تصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب . . وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم قرأ » :

﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾

وروى الطبرى وابن عساكر أن النبى ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده . . ما من خدش ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب . . وما يعفو الله عنه أكثر » .

ومن الرموز الجميلة فى قصة آدم ، ما رواه ابن عساكر عن مجاهد قال :

« أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره . . فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه . . وتعلق غصن ، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة . . فنكس رأسه يقول : العفو ، العفو . . فقال الله :

أفراراً منى ؟ . . قال : بل حياء منك يا سيدى . .

ولجأ آدم إلى الله مستغفراً ، نادماً ، منيباً . . فلما كان كذلك تاب الله عليه . .

يقول سبحانه :

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم﴾ .

أما هذه الكلمات التى اتجه بها آدم إلى الله ، فكانت نتيجتها توبة الله عليه ، فهى :

﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ .

وقد رويت فى ذلك كلمات لا تخرج عن هذا المعنى ، منها ما قاله مجاهد :

« الكلمات هى : اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك . . رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين . . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك . . رب إنى ظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم » .

لقد كانت النتيجة لالتجاء آدم إلى الله هى ما عبر الله عنه بقوله :

﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ . .

وإنه لقانون إسلامى عام ، أن من ارتكب المعصية ثم رجع إلى الله فى إخلاص وصدق ، فإن الله سبحانه وتعالى يفتح له أبواب توبته . .

جو نوح عليه السلام

ونقصد بجو نوح عليه السلام : جو الاستغفار وجو الشكر .

لقد أخذ سيدنا نوح يدعو إلى التوحيد ، فى همة لا تفتر ، وفى نشاط لا يتوانى ، أخذ يدعو ليلاً ونهاراً ، وأخذ يدعو جهراً حينما تتيح له الظروف الدعوة الجهرية ، ويدعو سراً حينما يستلزم الأمر الدعوة سراً . .

لم يكن يدع فرصة تمر إلا ويشرح فيها رسالة الله : مبشراً ونذيراً ، مرغباً فى ثواب الله وجنته ، ومخوفاً من عقابه وعذابه . .

لقد أخذ يشرح لهم قدرته ، وشمول علمه ، قائلاً :

ألا ترون أنه خلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق . . لقد كنتم تراباً ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم كنتم أجنة . . وكنتم فى جميع هذه الأطوار فى رعاية الله . . محفوظين بحفظه ، محاطين بعنايته . . وبعد ذلك كنتم أطفالاً ، فشباباً ، وهكذا . . وستعودون إليه من جديد فى أية لحظة شاء . . فارجعوا إليه بالتوبة والإنابة والطاعة ، قبل أن تواجهوه وهو عنكم غير راض . . ثم ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ؟ . . ثم ألم تروا كيف جعل لكم الأرض بساطاً ، وجعل لكم فيها مسالك وسبلاً

للإقامة والانتفاع ؟ . . وفى كل ذلك ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . .

وأخذ سيدنا نوح يعدد نعم الله ، منبهاً إلى اليسير منها والعظيم ، الظاهر منها والباطن . . ونعم الله كثيرة لا تحصى . .

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ .

ثم أعلن لهم قانون «الاستغفار» . . وسيدنا نوح أول من أعلن هذا القانون :

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ .

هذه هى مقدمة القانون . . أو قاعدته وأساسه . .

فإذا ما كان الاستغفار الخالص النصوح . . إذا ما كان الالتجاء إلى الله بطلب المغفرة فى صدق كانت النتيجة . .

والنتيجة هى :

﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ . . أى . . ينزل الغيث المحيى لأرضكم الجدباء ، والذى يملأ أنهاركم الجارية بالخير والنماء . .

وماذا يترتب على الاستغفار أيضاً ؟ . .

﴿ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ .

إن الإمداد بالأموال والبنين – وقد أتى بهما القرآن بصيغة الجمع – مترتب على الاستغفار . .

وإن هبة الجنات والأنهار - وقد أتى بهما القرآن بصيغة الجمع أيضاً - مترتبة على الاستغفار . .

هذا هو قانون الاستغفار الذى أعلنه سيدنا نوح عليه السلام .

وهذا القانون قانون عام لا يحدده زمن ولا يحده مكان . . فمن التجأ إلى الله فى العصر الحاضر بالاستغفار الخالص النصوح الصادق . . فإن الله سبحانه يهيىء له من الظروف ما يجعله يعيش فى سعة من الرزق ، وفى يسار من المال . .

إنه وعد الله الذى أوحاه إلى رسوله نوح ليعلنه للناس . . ووعد الله لا يتخلف . .

ولقد أوضح رسولنا ﷺ فيما بعد - زاوية مهمة من زوايا قانون الاستغفار . . وهى عدم وقوع العذاب على المستغفر . . يقول تعالى : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ .

* * *

سارت سفينة نوح - باسم الله مجريها ومرساها . . وسارت فى موج كالجبال . . ترافقها عناية الله فى سيرها . . فلم يحدث لها ما يسىء . .

ولقد كانت عناية الله ورعايته ترافق نوحاً فى كل خطواته . . ففى صنع السفينة يقول الله تعالى له :

﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ . . أى على مرأى منا ، وبإرشادنا فى كل الخطوات . . فعناية الله كانت ترافقه فى بناء السفينة . .

ويقول الله سبحانه وتعالى عن سير السفينة : ﴿تجرى بأعيننا﴾ . . .
أى أن سيرها كان فى مجال الرعاية الإلهية ، والملاحظة الربانية . .
ولم تترك السفينة للعواصف تلعب بها ، ولا للأعاصير تدمرها . .

هذه الرعية والعناية كان يرافقها ويقابلها من نوح عليه السلام وصفان ، ذكرهما الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾ . .

لقد حقق نوح عليه السلام العبودية لله سبحانه . . والعبودية لله سبحانة أشرف ما يوصف به الإنسان بالنسبة لله سبحانه . . وإن من حققها فقد حقق الهدف الذى من أجله خلق الله الإنسان . . بل الجان . . يقول سبحانه :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ . . أى ليتحققوا بالعبودية . . فإذا ما تحققوا بها كفاهم الله كل ما أهمهم . .

ألا ترى إلى تعبير القرآن كيف ستعمل كلمة «عبد» . . وقال :

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ . .

لقد تحقق نوح عليه السلام بالعبودية لله . .

ومن أجمل مظاهر العبودية الشكر لله تعالى .

ولم يكن نوح عليه السلام عبداً شاكراً . وإنما كان عبداً شكوراً . . ذلك أن الشكور أبلغ فى الشكر من الشاكر . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وقليل من عبادى الشكور﴾ . .

ولقد كان من مظاهر شكر نوح لله سبحانه وتعالى كثرة صيامه . .

روى ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت الرسول ﷺ يقول :

« صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى . . وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر . . صام الدهر ، وأفطر الدهر » .

ومعنى قول الرسول - ﷺ - عن إبراهيم عليه السلام :

« صام الدهر وأفطر الدهر » . . أنه ما دامت الحسنة بعشر أمثالها ، فصوم يوم إنما هو بمثابة صوم عشرة أيام . . وصوم ثلاثة أيام من كل شهر إنما هو بمثابة صوم كل الشهر . . فكأن إبراهيم عليه السلام قد صام الدهر كله . .

ومع ذلك : فإنه لم يصم من كل شهر إلا ثلاثة أيام . . وهى أيام قليلة فكأنه قد أفطر الدهر كله . .

ولقد كافأ الله نوحاً بحسن عبادته ، وكثرة صيامه وشكره ، فأنجاه ومن معه فى السفينة .

جو التسبيح أو الجو اليونسى

إن الله سبحانه وتعالى حدثنا فى القرآن عن جو التسبيح . . وإن المسبّح لله سبحانه وتعالى يحظى بعناية الله به ، فيخرجه سبحانه من الضيق . ويفرج عنه الكرب . .

والمسألة واضحة كل الوضوح فيما يتعلق بذى النون عليه السلام . .

روى الإمام البخارى أن رسول الله ﷺ قال :

« لا ينبغى لأحد أن يقول : « أنا خير من يونس بن متّى » . .

ويونس بن متّى ، هو صاحب الدعوة المشهورة التى يقول عنها رسول الله ﷺ :

« لم يدع مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له » . .

وهذه الدعوة هى :

« لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » . .

وهى دعوة تبدأ بالتوحيد الخالص ، يتمثل فى قوله تعالى : « لا إله إلا أنت » .

وتثنى بالتنزيه . . تنزيه الله عن كل ما يتنافى مع الكمال . . وذلك يتمثل فى قوله « سبحانك » . . ثم تنتهى بالاعتراف الخاشع المتمثل فى قوله : « إنى كنت من الظالمين » .

وهذه الكلمات القليلة التي يتمثل فيها الإيجاز المعجز في اللفظ . والتي يتمثل فيها السمو السامي في المعنى . . لا تطلب شيئاً في صراحة ، ولا تنادي بشيء بأسلوب مباشر . . ولكنها مع ذلك مفعمة بالطلب ، مفعمة بالاستغاثة . .

لقد دعا بها سيدنا يونس وهو في بطن الحوت ، ويحسن أن نبدأ القصة من أولها :

لقد أرسل الله سيدنا يونس - عليه السلام - إلى أهل « نينوى » من أرض الموصل . . وكان سيدنا يونس - ككل الأنبياء - متحمساً لدعوته ، قائماً بها في الصباح والمساء ، وكما استطاع إلى ذلك سبيلاً . . ومتخذاً لها كل الوسائل التي في إمكانه لتنتشر وتعم . .

ولكن قومه قابلوا تحمسه بفتور ، وقابلوا دعوته إلى الإيمان بالكفر الأصم . . وقابلوا عنايته بعناد لا يلين . .

وإذا كان سيدنا نوح - في مثل هذا الموقف الذي لا بارقة من أمل في إصلاحه - دعا على قومه قائلاً :

﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفّاراً ﴾ . .

فإن سيدنا يونس رأى أن لا فائدة في المكث بينهم ، فأنذرهم بحلول العذاب بهم بعد ثلاثة أيام . وخرج من بينهم معلناً أنه يخرج من أجل النجاة من عذاب الله . الذي يوشك أن يحل بهم لكفرهم وطغيانهم . .

وغادر المدينة متعمداً أن يكون ذلك على مرأى ومشهد من أهلها . .

وما إن فارقهم نبى الله ، حتى بدأ الخوف ، بل الرعب ، يدب إلى قلوبهم ، ويتغلغل فى نفوسهم . .

ولقد أخذت ذاكرتهم فى إلقاء الضوء على صدقه وأمانته ، وعلى فضائله ومكارم أخلاقه ، وعلى أنه لم يعهد عليه الكذب ولا الخديعة . . وترجح عندهم صدقه . . ثم أيقنوا بهذا الصدق ، وتأكدوا أن العذاب لا محالة نازل بهم . . وأخذ خيالهم يصور لهم العذاب وألوانه وفجائعه ، فاجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم ، وانتهوا إلى اتفاق عام . . هذا الاتفاق العام صوره أسلافنا فى صورة أخاذة ، يرويها الإمام ابن كثير على الوضع التالى :

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد ابن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف :

فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققوا نزول العذاب بهم . . قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم . . فلبسوا المسوح ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها . . ثم عجوا إلى الله عز وجل وصرخوا ، وتقربوا إليه ، وتمسكنوا لديه . . وبكى الرجال والنساء ، والبنون والبنات والأمهات . . وجأرت الأنعام والدواب والمواشى ، ورغت الإبل وفصلانها . . وخارت البقر وأولادها . . وثغت الغنم وحملانها . . وكانت ساعة عظيمة هائلة . .

وهذه هى الصورة التى رسمها أسلافنا - فماذا كان من أمره ، وماذا كان بعد أمرهم ؟ . .

فارق يونس عليه السلام قومه ، بعد أن أنذرهم بعذاب مدمر . . فتضرعوا إلى الله - سبحانه - بالتوبة والإنابة والاستغفار ، مقدمين بين يدى ذلك كله الإيمان الصادق . . فكانت ثمرة ذلك نجاتهم التى صورها الله بقوله :

﴿ إلاّ قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ .

وهذا الذى صنعه الله بهم ، يساير نواميس الله سبحانه التى سنها نظاماً عاماً للبشرية ، وهى أن عذاب الله - سبحانه - ينزل على الأفراد أو على المجتمعات بنسبة بعدهم عن الإيمان ، وأن رحمته تغمر الأفراد والمجتمعات بنسبة قربهم من الإيمان . . والنجاة دائماً مكفولة فى نواميس الله للمؤمنين الصادقين . .

أما يونس عليه السلام فإنه لما ضاق بقومه ذرعاً ، فارقهم مغاضباً منذراً بالعذاب . .

ولم تكن هذه المفارقة عن استئذان من الله سبحانه ، أو عن أمر منه . . وإنما ظن هو أن هذا فى شريعة الله ، أوسع من أن يحتاج إلى إذن ، وأنه غير مضيق عليه من قبل الله فى المكث أو فى المفارقة . . أى أنه فى مجال المباح . .

وغرب عن ذهنه فى ساعة مغاضبته لقومه ، أن المفارقة بدون استئذان إذا جازت بالنسبة للأفراد العاديين ، فإنها لا تجوز بالنسبة لمن يصطفيهم الله للعبودية الخالصة ، ومن يجتبيهم مرسلين من قبله . .

إن هؤلاء لا يتحركون إلا به ، ولا يسكنون إلا عن أمره . . وهم فى كل ما يأتون وما يدعون ، قد ألقوا بمقاليد أمورهم بين يديه ، يصرفهم حسبما يشاء . .

ولعل ذلك هو ما تعنيه الكلمة القرآنية الكريمة فى قوله تعالى :

﴿ فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ . .

وصاحب الحوت هو سيدنا يونس الذى لم يصبر على كفر قومه وعنادهم ، ففارقهم عن غير إذن من الله . . فكان من تقدير الله سبحانه أن وصل يونس عليه السلام إلى شاطئ البحر ، وركب مركباً مشحوناً ثقيل الحمولة . . وهبت ريح جعلت المركب على حافة الغرق بمن فيها . . فكان لابد من تخفيف حمولتها حتى يستقيم أمرها . .

واستهم الركاب على من يلقون به فى البحر تخفيفاً للحمولة ، فوقعت القرعة على يونس – عليه السلام – فألقوه فى البحر . .

ولما ألقوه فى البحر ، ابتلعه حوت كبير . . وفجأة رأى سيدنا يونس نفسه فى بطن الحوت . . فأسرع مستغيثاً :

﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ .

روى يزيد الرقاشى قال : سمعت أنس بن مالك – ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ – يقول :

« إن يونس النبى – عليه السلام – حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت ، قال : اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك إنى كنت من الظالمين . . فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش . . فقالت الملائكة : يا رب ! . . صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . . فقال : أما تعرفون ذاك ؟ . . قالوا : لا . . يا رب . . ومن هو ؟ . . قال : عبدى يونس . . قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يُرفع له عمل متقبَّل ، ودعوة مجابة ؟ . . قال : بلى . . قالوا : يا ربنا ! . . أو لا ترحم ماكان يصنعه فى الرخاء ، فتنجيه من البلاء ؟ . . قال : بلى . . فأمر الحوت فطرحه فى العراء » . .

أما إذا انتفى التسبيح

وقصة أخرى قصها الله سبحانه فى كتابه الكريم ، هى قصة أصحاب الجنة . . وجنتهم هى – كما يقول الإمام الصاوى – بستان باليمن يقال له الصروان دون صنعاء بفرسخين . . وكان صاحبه ينادى الفقراء وقت الجذاذ[1] ، ويترك لهم ما أخطأ المنجل من الزرع ، أو ألقته

(١) أى الحصاد

الريح ، أو بعد عن البساط الذى يبسط تحت النخل . . وكان يجتمع لهم من ذلك شىء كثير . . فلما مات ورثه بنوه ، وكانوا ثلاثة . . وشحوا بذلك . . وقالوا : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ، ونحن ذو عيال . . فحلفوا على أن يجذوه قبل الشمس حتى لا تأتى الفقراء إلا بعد فراغهم . . وكانت قصتهم بعد عيسى ابن مريم بزمن يسير . .

لقد أقسموا على قطع ثمارها فى الصباح الباكر ، كيلا يشعر بهم أحد . . وقبل الصباح الباكر . . طاف عليها طائف من ربك فجعلها كالليل الشديد الظلمة . . فلما رأوها قالوا إنا لضالون مكانها ، فليست هذه جنتنا . . ولكنها جنتهم وليس فيها ثمر ناضج . . وكان قولهم : بل نحن محرومون من ثمارها بمنعنا الفقراء منها . .

فقال أوسطهم - وهذا هو ما نريد أن ننبه إليه - ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون ؟﴾ . .

ولو كانوا قد أطاعوه وسبحوا الله سبحانه وتعالى ، لرقت قلوبهم فامتنعوا عما جال فى أذهانهم من منع الفقراء وحرمانهم ، فنجوا من الفقر ، ونجت حديقتهم من الدمار . .

والتسبيح فضلاً عن ذلك سبب فى الرضا والسكينة . . رضا النفس وسكينتها . . يقول تعالى :

﴿فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس

وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبِّح وأطراف النهار ، لعلك ترضى ﴾[1] .

على أنه قد وردت الآثار أن التسبيح من العناصر التى هى من أسباب الرزق . .

عن سليمان بن يسار - رضى الله عنه - عن رجل من الأنصار ، أن النبى ﷺ قال : قال نوح لابنه :

« إنى موصيك بوصية وقاصرها لكيلا تنساها . . أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين . . أما اللتان أوصيك بهما ، فيستبشر الله بهما وصالح خلقه . . وهما يكثران الولوج على الأرض . . أوصيك بلا إله إلا الله ، فإن السموات والأرض لوكانتا حلقة قصمتهما ، ولوكانتا فى كفة وزنتهما . . وأوصيك بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق ، وبها يرزق الخلق . . وإن من شىء إلا يسبِّح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً . .

وأما اللتان أنهاك عنهما فيحتجب الله منهما وصالح خلقه : أنهاك عن الشر والكبر »[2] .

---

(١) سورة طه : ١٣٠ .

(٢) النسائى والبزار وقال الحاكم : صحيح الإسناد .